كي لا نفقد الذاكرة

وديع عواودة*

الرواية الشفويّة هي الحكاية المحفوظة في ذاكرة الناس، والمنقولة شفاهة من جيل لآخر، وتمتاز بعفويّتها وبُعدها عن غربلة المؤرّخين وكتّاب التاريخ، لا في سبيل توثيق أحداث من ماضٍ قد ولّى فحسب، بل من أجل احتياجات الحاضر والمستقبل. هذا لا يعني أنّ الرواية الشفويّة تقوم على عشوائيّة، بل على أهداف يحدّدها جامع الشهادات الشفويّة، إذ يجمعها ويضبطها وَفق معايير مهنيّة بغية إحياء المخزون الثقافيّ لأصحاب الشهادات، وجعْلِها رواية تاريخيّة تعزّز هُويّتهم، وعرْضِها في نصّ تاريخيّ في متناول الجميع.

يتعامل كثير من المؤرّخين منذ أواخر القرن العشرين مع الرواية الشفويّة كأحد المصادر المستعملة في الكتابة التاريخيّة، شأنها في ذلك شأن المصادر المكتوبة التي طالما حظيت بتبجيل مفرط وجرى التعامل معها كنصّ مقدَّس.

تحتلّ الرواية الشفويّة الفلسطينيّة مكانًا هامًّا في كتابة التاريخ الفلسطينيّ الحديث، لِما كان من نهْب للمكتبات والأرشيفات العامّة والخاصّة منذ النكبة واستمرار محاولات احتلال الوعي وتهويد المكان وما ينتج عن ذلك من تشويه الرواية المتعلّقة بهذا المكان وبسكّانه الأصليّين. بصرف النظر عن الجدل القائم بين المؤرّخين حول مصداقيّة الرواية الشفويّة في كتابة التاريخ السياسيّ والاجتماعيّ، فمن المؤكّد أنّها أصبحت ركنًا أساسيًّا في المحافظة على هُويّة الفلسطينيّين وفي صياغة ذاكرتهم الجماعية، شأنهم في ذلك شأن كثير من الشعوب والجماعات المقهورة. يجدر بنا أن نشير هنا أنّ تاريخ الجماعات المسيطرة لم يَخْلُ من الشهادات الشفويّة التي تعزّز هذه السيطرة. هكذا نرى الرواية التاريخيّة الصهيونيّة قد منحت (وما زالت تمنح) الشهادات الشفويّة أهمّيّة لا في بناء هُويّة يهوديّة فحسب، بل في بناء أمّة

تصهر الفئات والجماعات القادمة إلى فلسطين من نحو مئة وعشرين (120) دولة في بوتقة سياسيّة وثقافيّة واحدة.

لم تَعُد ذكريات مأساة النكبة وحدها مركزَ اهتمام المؤرّخين، بل تزداد أهمّيّةُ الشهادات الشفويّة في عمليّة سَبْر أغوار الهُويّة القوميّة والثقافيّة، واستعادة ملامح الحياة العامّة في فلسطين قبل عام 1948 وبعده.

في ظل واقع اللجوء والشتات، نسجت الجدّات والأمّهات روايةَ المكان في وعي الأجيال المولودة خارج موطنها وديارها بروايات شفويّة عفويّة حول الحياة الفلسطينيّة في القرية الفلسطينيّة التقليديّة، فتشكّلت في هذا الوعي ملامح البيوت والحواري، والبيادر، والبيّارات والحقول، ومواسم الحصاد، والأفراح والاحتفالات الشعبية. لكي يبقى هذا الوعي نابضًا حيًا يجب تحويل الروايات العفويّة إلى شهادات منظّمة حسب الأصول المهنيّة للتاريخ الشفويّ. تتعاظم حيويّة الرواية الشفويّة لدى فلسطينيّي الداخل الذين يعيشون في "بطن حوت" يبتلع كثيرًا من ذاكرتهم الجماعيّة ويشوّه هُويّتهم الوطنيّة، ولا سيّما أنّ سِنّ 70 % منهم لا تتجاوز الثلاثين. لم يُحْرَم هؤلاء من كثير من تراث أجدادهم الثقافيّ فحسب، بل تُحاك لهم كلَّ يوم مخطَّطاتٌ مُمَنْهَجة ابتغاءَ صياغة هُويّة بديلة هي هُويّة "العربيّ -الإسرائيلي". فمنذ عام 1948، تتسابق المؤسّسات الإسرائيليّة على التفرّد بهم بغية قطع صلاتهم بثقافتهم الأصلانيّة وإبعادهم عن محيطهم القوميّ والحضاريّ فارضةً عليهم طوقًا مُحْكَمًا من الانعزال. متذرّعًا بهاجس أمنيّ مزعوم، شكّلَ نظام الحكم العسكريّ الذي دام قرابة عقدين من الزمن الأداةَ الأولى لتحقيق هذه الغاية؛ إذ لم تكتفِ السلطات الإسرائيلية بفصل "اللحم عن العظم" وقطع أواصر التواصل بين فلسطينيّي الداخل وسائر أبناء شعبهم في الضفّة وغزّة والشتات، بل شَرَعتْ في تطبيق مناهج تعليميّة هدفُها غسلُ دماغهم الثقافيّ، وتغييبُ وعيهم ومن ثَمّ تدجينُهم، تمهيدًا لجعلهم فريسة للسياسة الصهيونيّة الساعية إلى تحييدهم عن قضيّة الشعب الفلسطينيّ والحيلولة دون المشاركة في بَلْوَرة الهُويّة الثقافيّة الجامعة.

منذ النكبة، تنبّه أصحاب القرار في إسرائيل أنّهم ارتكبوا خطأً تاريخيًا حينما أبقَوْا فرعًا من فروع الشجرة الفلسطينيّة التي اجتثّوها فوضعوا الخطط لاحتواء هذا الفرع المتبقّي (نحو 130 ألف نسمة عام 1948) بهدف أَسْرَلَتهم. فقد كان جهاز التعليم من أهمّ وسائل الضبط والسيطرة، حيث إنّ

مستعربين من اليهود الشرقيين عملوا على إعداد مناهج اعتمدت مضامين تقود الى أَسْرَلة المكان وفرض رواية تاريخيّة تغيّر المصطلحات والتسميات. من هنا تتجلّى أهمّيّة الرواية الشفويّة التي تستعيد الأسماء والمصطلحات، وتصوغ تاريخًا مغيّبًا في المناهج الإسرائيليّة. لا شكّ أنّ الرواية الشفويّة تستطيع أن تعيد الذاكرة الى أحداث تحاول المؤسّسة التعليميّة الرسميّة طمسها. على سبيل المثال، ما زالت معظم المدارس العربيّة تغفل إحياء ذكرى النكبة، وذكرى مجزرة كفر قاسم، وذكرى يوم الأرض وغيرها من المناسبات الوطنية. من يتفحّص مناهج التعليم في المدارس العربيّة يلاحظ أنّها تتوسّع في عرض ودرس الأماكن الإسرائيلية مثل الكيبوتسات والموشافيم مهملةً القرى والمدن الفلسطينيّة القائمة والمهجّرة وغير المعترَف بها، ويلاحظ كذلك أنّ أحداثًا تاريخيّة مثل ثورة البُراق والثورة الفلسطينيّة الكبرى عام 1936 وغيرها لا ذكْر لها، كأنّها لم تحدث.

ربّما بقيت الرواية الشفويّة لفلسطينيّي الداخل (بخلاف الرواية الشفويّة لفلسطينيّي الشتات) عفويّة غير منظّمة، وتختلف من أسْرة الى أخرى، ولذا فهي بحاجة إلى عمل دؤوب ينقذ ما يمكن إنقاذه. تبدو هذه المَهَمّة ملحّة بسبب وجود إعلام فلسطينيّ محلّيّ مهمِل في تقدير أهمّيّة الرواية الشفويّة للمحافَظة على ذاكرة جماعيّة وهُويّة وطنيّة؛ فهذا الإعلام يتقن نقد سياسات "التجهيل الإسرائيليّة" أكثر من إيقاد شموع ورعاية مشاريع حقيقيّة تصون الذاكرة وتحمي الهُويّة وترعاها بدلاً من الاكتفاء بالثرثرة والشعار. يجب ألاّ نكتفي بمقولات دراسات تشير إلى فشل المؤسّسات الإسرائيليّة في تحقيق أهداف جهاز التعليم الرسميّ في طمس الهُويّة الفلسطينيّة بل علينا أن ننظّم الرواية الشفويّة لفلسطينيّي الداخل حتّى نستطيع ضمان ثبات هذه الهُويّة وضمان منع هذه المؤسّسات من تحقيق مخطّطات التفرقة والتفتيت والأَسْرَلة والتدجين. عندها، يمكن أن نستخدم الرواية الشفويّة سياجًا حاميًا للذاكرة العامّة وللهُويّة الوطنيّة، ونَطمئنّ على مستقبل لا تَفقد فيه الأجيال القادمة ذاكرتها.

*__وديع عواودة__: كاتب صحفي ورئيس تحرير صحيفة " حديث الناس" وباحث في موضوع الذاكرة الفلسطينية.